نظرة على اللغة العربية

د. ثُريا دار *

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلّمه البيان وجعل اللغة العربية لغة باقية تحمل إلى الناس في مضامينها الخير والسعادة وتعمل كأداة التعارف بين ملايين من البشر المنتشرين في آفاق الأرض تثبت ثبات الجبال الراسيات في أصولها وجذورها وصلّى الله على من أنزل عليه كتابا بلسان عربي مبين يهدي الناس إلى الصراط المستقيم .

إن اللغة بين اللغات كالفرد بين المجتمع لها شخصية مستقلّة وجبلّة متميّزة . واللغة كائن حيّ ، تحيا على ألسنة المتكلمين وتتطوّر وتتغيّر بفعل الزمن ، كما يتطوّر الكائن الحيّ ويتغيّر .

واللغة ظاهرة اجتماعية ، تحيا في أحضان المجتمع فتتطوّر بتطوّر هذا المجتمع وتنحط بانحطاطه.

اختلف العرب في أصل هذه الكلمة وضروب اشتقاقها فذكر ابن فارس أنها من " لغى بالأمر إذا لهج به " . [١] وقال ابن دريد : إن اللغة معروفة وجمعها لُغات، لَغُون ونغين ولُغى ". [٢] وقال ابن جنّي : " أما تصريفها ومعرفة حروفها فإنها فُعْلَة من لغوت أي تكلمت ". [٣] وجاء في اللسان : اللغة فُعْلَة بضمّ الفاء .[٤]

وقال الجوهري : " أصلها لَغْيٌ أو لَغْوٌ " . [٥] وقال الراغب : " لغى بكذا إذا لهج به، ولهج العصفور بلغاة أي بصوته ، ومنه قيل للكلام الذي يلهج به فرقة فرقة لغة ". [٦]

وليس من اليسير معرفة الوقت الذي عرّبت فيه لفظة " لغة " غير أن عدم ذكرها في القرآن الكريم لا يمكن أن يتخذ دليلا على عدم استعمالها في الجاهلية فلقد وردت هذه المشتقات في الآيات المباركة التالية :

(وَقَالَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا لاَ تَسْمَعُوْا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيْهِ) [٧] أي الغطوا فيه ، يبدّل أو ينسى فتغلبوه .

* رئيسة قسم اللغة العربيةوآدابها بالجامعة الإسلامية ببهاولبور

(وَالَّذِيْنَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُوْنَ) [٨] أي الباطل .

(يَتَنَازَعُوْنَ فِيْهَا كَأساً لاَّ لَغْوٌ فِيْهَا ولاَ تَأْثِيْمٌ) . [٩]

(لاَ يَسْمَعُوْنَ فِيْهَا لَغْواً إلاَّ سَلاَماً ولَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيْهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً) . [١٠]

(فِيْ جَنَّةٍ عَالِيَةٍ لا تَسْمَعُ فِيْهَا لاَغِيَةً) [١١] أي كلمة فاحشة .

وإذ كانت المعاجم العربية لا تورد لهذه اللفظة سوى معناها الواسع المرادف للسان فإن تتبع النصوص العربية الأخرى يشعر بأن العرب استعملوها قديما بمعنى آخر ضيق وهو اللهجة : فقد روي عن ابن عباس أنه قال : " نزل القرآن على سبعة أحرف " أو قال : " سبع لغات " [١٢] . ولعلّ الأصل في هذا القول حديث ينسب إلى الرسول عليه السلام يقول فيه : " إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ " . [١٣] قال ابن نوفل : "سمعت أبي يقول لأبي عمرو بن العلاء : أخبرني عمّا وضعت مما سميته عربية ، أ يدخل فيها كلام العرب كله؟ قال: لا . فقلت : كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ قال :أعمل على الأكثر وأسمي ما خالفني لغات ". [١٤]

ولعلّ مصدر هذا الاضطراب هو أن اللفظة ليست عربية الأصل وإنما هي في الراجح معرّب "lo gus " اليونانية التي من معانيها " كلمة " أخذها العرب وصاغوا منها فعْلا ومصدرا ، ثم نسوا أصلها بعد أن عرّبت .

ومما يؤيد ما نذهب إليه أن هذه اللفظة لا وجود لها في بعض اللغات السامية على الأقل فهي ليست موجودة في العبرية وإنما يقابلها فيها لفظة wh ת ا م "لشون " التي تعني اللسان ، وهي ليست موجودة في الآرامية كذلك ويقابلها فيها لفظة WH ת ع " لشان " وقد استعمل العرب لفظة " لسان " للدلالة على اللغة منذ القديم وهو أقدم أثر أدبي موثوق به وصل إلينا ، وإنما وردت كلمة "لسان " لأداء مدلولها ووردت هذه الكلمة في الآيات التالية :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُوْلٍ إلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) [١٥]

(لِسَانُ الَّذِيْ يُلْحِدُوْنَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِيْنٌ) [١٦]

(لِتَكُوْنَ مِنَ الْمُنْذِرِيْنَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِيْنٍ) [١٧]

(هُوَ أَفْصَحُ مِنِّيْ لِسَاناً) [١٨]

(وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِياً لِيُنْذِرَ الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا) [١٩]

أما اللغة في الاصطلاح فهي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم وعن المعاني القائمة في نفوسهم . أو بألفاظ أخرى ، اللغة أداة نقل للأشياء من الحواس إلى الأذهان ملفوظا كان أو مكتوبا . فهي أداة تؤدي وظيفة التعبير .

اللغة العربية :

إن اللغة العربية تنقسم قسمين : العربية البائدة ، والعربية الباقية . فالقسم الأول من اللغة العربية كان يتكلم بها عشائر عربية ، فهي كانت مجموعة من اللهجات وهي تتكلم في شمال الحجاز . واللغة العربية البائدة تأثرت من الآرامية تأثرا واضحا شديدا حتىغلبت الآرامية عليها ، ثم بادت هذه اللهجات قبل الإسلام ، وقد عثر علماء اللغات على نقوش تدلّ عليها .

أما العربية الباقية فهي نشأت ببلاد نجد والحجاز . ولكن ليس لدينا معلومات عن طفولة اللغة العربية ولا توجد هناك نقوش أو اثار تدلّ على طفولتها . والذي وصل إلينا هو من آثار أدبية للشعراء الجاهليين والخطباء . وهي مرحلة تمثل عنفوان شبابها ومرحلتها الأخيرة التي انتهت إليها قبيل الإسلام ، والتي تمثل الوحدة اللغوية في الشعر الجاهلي ، والتي ثبتها القرآن وحدد مجراها . أما نشأة اللغة وتطورها قبل الإسلام فإنها مرحلة مجهولة نتخيلها بوضع فروض لا طائل تحتها .

اللغة العربية سامية الأصل :

أراد الباحثون الغربيون ، وهم يقسمون لغات العالم أن يختاروا تسمية مناسبة لمجموعة اللغات العربية والعبرية والحبشية والسريانية والآرامية وغيرها من اللغات التي اعتقدوا – لما لاحظوا من أوجه الشبه بينها – أنها كانت لغة واحدة ، يسكن المتكلمون بها بقعة واحدة ، ثم تفرقوا في الأرض وانتشروا واختلفت ألسنتهم وتباينت لغاتهم . فهناك تشابه كبير بين اللغات السامية في الأصوات والصيغ والتراكيب والمفردات ما لا يمكن معه أن ننسب بقاربها إلى حدوث اقتباسات بينها في العصور التاريخية وإنما لا سبيل إلى تفسير هذا التقارب إلا بافتراض أصل مشترك بينها. [٢٠]

والساميون هم : الآراميون والفينيقيون والعبرانيون والعرب وأهل اليمن

والبابليون والاشوريون وما انحدر من هذه الشعوب . وقد اختار العالم الألماني "شلوتسر " اصطلاح اللغات السامية لإطلاقه على هذه اللغات ، واستمدّ هذه التسمية من جدول تقسيم الشعوب من سفر التكوين في التوراة . وهذا الجدول يبيّن أن هذه الشعوب يرجع أصلهم إلى أبناء نوح عليه السلام : سام وحام ويافث . ويبين أيضا أن الآشوريين والآراميين والعبريين من أبناء سام .

واللغات السامية هي إحدى فصائل اللغات البشرية المعروفة وتنقسم عموما ، إلى شرقية وغربية ، كما تنقسم السامية الغربية إلى غربية شمالية ، وغربية جنوبية . أما السامية الشرقية، فهي الأكادية بفرعيها البابلية والآشورية . وموطن هذه اللغة ، هو بلاد الرافدين : د جلة والفرات في العراق . وقد ماتت هذه اللغة من قديم الزمان ولم يبق لنا منها إلاّ تلك النقوش الكثيرة ، التي عرفنا منها الشئ الكثير عن اللغة وأصحابها .

وأما السامية الغربية الشمالية ، ففيها مجموعتان من اللغات : الكنعانية والآرامية.

. ومن الأولى اللغة الأوجاريتية، وهي لغة مدينة " أوجاريت " ، التي تقع شمالي " اللاذقية " على الساحل السوري ، وقد تمّ اكتشافها سنة ١٩٢٩م . وأهم لهجات الكنعانية ، هي اللغة العبرية ، التي كتب بها العهد القديم ، ويشمل التوراة والمكتوبات . ومن الكنعانية كذلك : اللغة الفينيقية ، التي انتشر أصحابها في بعض بلاد البحر المتوسط ، عن طريق التجارة ، وكونوا لهم مستعمرات على الشاطئ الأفريقي ، في " قرطاجنة " وغيرها. أما الآرامية ، فقد كتب بها بعض النقوش . وأهمّ لهجاتها ، هي اللغة السريانية ، التي كانت منتشرة في العراق وسوريا ، في زمن الفتوح الإسلامية لهذه البلاد ، وقد قضت العربية عليها .

وأما القسم الجنوبي الغربي من اللغات السامية ، فيضم الحبشية والعربية ، والأولى تسمى بالجعزية . والعربية انقسمت إلى قسمين : العربية الجنوبية ، والعربية الشمالية.

وعرفت الجنوبية عند علماء اللغة باللغة " الحميرية " ، وموطنها اليمن وجنوبي الجزيرة العربية ، ولها لهجتان : السبئية والمعينية . وجدت الحميرية في صورة نقوش كثيرة ، التي كتبت في فترة من القرن الثاني إلى القرن السادس الميلادي .

أما العربية الشمالية ، فهي لغة وسط الجزيرة العربية وشماليها ، وهي التي تسمى باللغة العربية . وأقدم نصوصها – كما ذكرت – الأدب الجاهلي من شعر وخطبة وحكمة ومثل . وقد كتب لها الخلود ، بسبب نزول القرآن الكريم بها . فقد قال عزّ وجلّ : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُوْنَ) [٢١] .

وعرفنا من هذا التقسيم أن الشعوب المذكورة كانت تتكلم في الأصل لغة واحدة وهي اللغة السامية الأم ، غير أن اختلاف بيئاتها أدّى إلى اختلاف في لهجاتها ما لبث أن اتسع مع الزمن حتى جعل من تلك اللهجات لغات مختلفة مستقلة . وعرفنا كذلك أن هذه اللغات ليست حلقات متصلة ، في سلسلة لغوية واحدة . ولا نستطيع أن نقول : إن هذه اللغة أقدم من تلك اللغة ، لأن جميعها ترجع إلى أصل واحد وهو " السامية الأم " التي لا وجود لها الآن . وعلى الرغم مما بين هذه اللغات من اختلاف فقد بقي بينها إرث مشترك يقوم على تشابه في كثير من الألفاظ وقواعد اللغة . [٢٢]

وعلى ذلك نستطيع القول بأن العربية استمدت أصولها الأولى من اللغة السامية الأم ، ثم أخذت تتطوّر عنها مع الزمن ، غير أن هذا التطور على ما يعتقد ، سار وئيدا ، قبل الإسلام ، بالقياس إلى نظيره لدى الشعوب المختلفة التي حلت بين ظهرانيها .

وكان لطبيعة الجزيرة العربية شأن كبير في ذلك ، فقد كان لترامي أطرافها وصعوبة الاتصال بين أجزائها ما جعل سكانها ينقسمون إلى قبائل أخذت تظهر بينها مع الزمن لهجات مختلفة بَعْد التباين بينها أو قرب بالنسبة لاتصال أصحابها بعضهم ببعض من جهة ومدى تأثرهم بالأقوام المجاورة لهم من جهة أخرى .

الموطن الأصلي للساميين :

العرب فرع من الشعوب السامية وقد اختلف العلماء حول تحديد الموطن الأول لهذه الشعوب . فزعم بعضهم أنه أفريقيا الشرقية ، [٢٣] وأنهم جاؤوا إلى جنوبي الجزيرة عن طريق باب المندب ، وقد استدلوا بأن هناك تشابه جسدية بين الحاميين والساميين وبين اللغات السامية . وليس لهذا الزعم دليل قوي ؛ لأن التشابه بين السامية والحامية محدود.

وادعى الآخرون " أنه مرتفعات كردستان ، أو بلاد آرمينيا " [٢٤] . وهذه النظرية

لا أساس لها ، وتشتمل على تصورات بعيدة عن الواقع ، فيقولون : إن حام طرد ، وإن يافث هاجر إلى بلد آخر ، فبقي سام هناك .

وقال بعض العلماء : إنه أرض بابل [٢٥] ، واستدلوا ببعض الأسماء المشتركة بينها وبين البابلية الآشورية . والمعروف أن نقوش السومرية وجدت قبل البابليين ، والسومريون ليسوا ساميين .

وقيل : إن شبه الجزيرة العربية هي الموطن الأول للساميين [٢٦]. وهذا أشهر الآراء وأرجحها ، ومال إليه كثير من المستشرقين ولديهم أدلة قوية منها : إن المناطق المذكورة آنفاً قد سكن فيها شعوب غير سامية ، ولكن لم يسكنوا جزيرة العرب غير الساميين كما أن هناك هجرات من جزيرة العرب إلى بلاد الشام والعراق وأفريقيا ، وأن جزيرة العرب في العصور القديمة كثيفة السكان ، خصبة الأرض ، ولكن عن أثر بعض الظواهر الجيولوجية فقدت خصبتها . فهاجروا إلى بلاد أخرى ، وقصص القرآن عن سبأ وعاد وثمود وغيرهم دليل على ذلك . كما أن العرب هم أقرب الساميين لغة ؛ لأنهم لم يختلطوا مع غيرهم وبقوا في جزيرة العرب .

اختلاف اللهجات :

إن الاختلاف بين لهجتي الشمالية والجنوبية أشد منه بين اللهجات الأخرى وقد تناول كثيراً من المظاهر الصوتية واللغوية بحيث غدا في الجزيرة قبل الإسلام لغتان متميزتان : شمالية وجنوبية . وقد أشارت كتب اللغة والأدب إلى ما كان بين هاتين اللغتين من مغايرة ، فقد روت أن أبا عمرو بن العلاء قال : " ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا " [٢٧] ، كما روت " أن رجلا شمالياً من بني دارم وفد على بعض ملوك حمير ، فألفاه في متصيّد له على جبل مشرف . فسلّم عليه وانتسب له ، فقال له الملك : ثب أي اجلس ، وظنّ الرجل أنه أمر بالوثوب من الجبل ، فقال : ستجدني أيها الملك مطواعاً ثم وثب من الجبل فهلك ، فقال الملك ما شأنه ؟ فخبره بقصته وغلطه في الكلمة . فقال : أما أنه ليست عندنا عربيت " . [٢٨]

وذكر ابن فارس أن العدنانيين الشماليين كانوا يعيرون ولد قحطان الجنوبيين بأنهم ليسوا عربا ، ويحتجون عليهم بأن لسانهم الحميرية وأنهم يسمون اللحية بغير

اسمها مع قوله تعالى : (وَلاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي) ٢٩ وأنهم يسمون الذئب "القلوب" ٣٠ مع قوله تعالى : (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ) ٣١، ويسمون الأصابع الشناتر ٣٢ ، وقد قال تعالى : (يَجْعَلُوْنَ أَصَابِعَهُمْ فِيْ آذَانِهِمْ) ٣٣ ، وما أشبه هذا .. ثم علّق على ذلك بقوله : " ليس اختلاف اللغات قادحا في الأنساب ونحن إن كنا نعلم أن القران نزل بأفصح اللغات فلسنا ننكر أن تكون لكل قوم لغة " . ٣٤

ويبدو أن اللهجات الشمالية تأثرت باللغات السامية المجاورة لها شمالا كالآرامية والعبرية فقد كان عرب الشمال يتصلون بشعوب سوريا والعراق منذ أقدم الأزمنة التاريخية اتصالاً متنوع الأسباب قد يكون للتجارة وتبادل المرافق وقد يكون للغزو أو لطلب الماء والكلإ . أما لهجات الجنوب فتمتاز بشدة شبهها للحبشية . وقد لاحظ المستشرقون " أن البيئة منها تشترك ، وفي العبرية اصطلاحات كثيرة لا وجود لها في العربية ". ٣٥ وتشير كتب اللغة إلى وجود اختلافات أقل مما كان بين هاتين اللغتين بين لهجات القبائل العربية الأخرى ، وأبرز ما تشير إليه من ذلك ما كان بين لهجتي أهل الحجاز وبني تميم . ٣٦ فقد كان الأولون يسهلون الهمزة في كثيرمن الكلم بينما الآخرون يحققونها ، فمثل يقول أهل الحجاز : سال يسال سوالاً ، ويقولون أيضاً : أيهات ، والتميميون : هيهات ، وأهل الحجاز ينصبون خبر"ليس" مطلقاً وبنو تميم يرفعونه إذا اقترن بإلاّ ، فيقول الحجازيون : ليس الطيب إلا المسك "بنصب المسك" وتقول تميم : ليس الطيب إلا المسك برفعها . ٣٧ الحجازيون ينصبون الخبر بعد "ما" النافية فيقولون : ماهذا بشراً ، وتميم يرفعونه فيقولون : ما هذا بشرٌ . وقد عدّه العلماء من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ وهو كذلك بعد أن هذبت اللغة وأطبقت العرب على المنطق الحر والأسلوب المصفى

وهناك اختلافات أقل من هذه تميزت بها لهجات قبائل أخرى ، وهي التي لقبت بلقب خاص وكان مذموما عندهم ، نحو :

كشكشة : وهي أن يجعل بعد كاف الخطاب في المؤنث شيناً كقولهم : بكش و عليكش ورأيتكش في بك وعليك ورأيتك ، وهم في ذلك ثلاثة أقسام : قسم يثبت

الشين حالة الوقف فقط وهو الأشهر ، وقسم يثبتها في الوصل أيضاً ، وقسم يجعل الشين مكان الكاف وبكسرها في الوصل ويسكنها في الوقف ، يقولون : مررت بك اليوم ، وفي مررت بك -في الوقف- مررت بِش .

قال ابن جني في " سرّ الصناعة " : " قرأت على أبي بكر محمد بن الحسين عن أبي العباس أحمد بن يحيى قول بعضهم :

عليَّ فيما أبتغي أبغيش بيضاء ترضيني ولا ترضيش

وتطبَي ودّ بني أبيش إذا دنوتِ جعلت تنئيش

وإن نأيتِ جعلتْ تدنيش وإن تكلمت حشت في فيش

حتى تنقي كنقيق الدّيش " ٣٨

أي تنئيك ، وتدنيك ، وفيك ، والديك . فشبّه في البيت كاف الديك لكسرتها بكاف ضمير المؤنث . وينشدون :

فعيناشِ عيناها ، وجيدشِ جيدها ولونشِ - إلا أنها غير عاطلِ

وقد تروى الكشكشة لأسد وهوازن ، وقال ابن فارس في فقه اللغة : إنها " في أسد "٣٩ .

الكسكسة : وهي أن يجعلوا بعد الكاف أو مكانها سيناً في خطاب المذكر ، وذكر صاحب القاموس أنها تكون في خطاب المؤنث لا المذكر ونسبها لتميم لا لبكر ٤٠ .

وفسّرها كما فسّر الحريري " أن الكسكسة لبكر لا لربيعة ومضر " . ٤١ وهي فيما نقله زيادة سين بعد كاف الخطاب في المؤنث لا في المذكر .

الشنشنة في لغة اليمن : جعل الكاف شينا مطلقا وكانوا يقولون في لبيك اللهم لبيك : لبيش اللهم لبيش .

العنعنة في لغة تميم وقيس : وهي قلب الهمزة في بعض كلامهم عيناً كقولهم : "عن" يريدون "أن" ، وفي إذن : عذن .

العجعجة في لغة قضاعة : وهي جعل الياء المشددة جيماً كأن يقال : تميمج في تميمي وكذا جعل الياء الواقعة بعد عين كأن يقال : الراعج في الراعي .

الفحفحة في لغة هذيل : جعل الحاء عيناً فكانوا يقولون في حتى "عتى" ، وعلى

لغتهم قرأ ابن مسعود "عتّى عين " في قوله تعالى : حتى حين ، فأرسل إليه عمر بن الخطاب " إن الله أنزل هذا القرآن فجعله عربياً وأنزله بلغة قريش . إن القرآن لم يتنزل على لغة هذيل ، فأقرئ الناس بلغة قريش ولا تقرئهم بلغة هذيل " . ٤٢

الطمطانية في لغة حمير : وهي جعل لام التعريف ميماً وعليها جاء الحديث في مخاطبة بعضهم " ليس من امبر امصيام في امسفر " أي ليس من البرّ الصيام في السفر .

الخلخانية : وهي حذف بعض الحروف اللينة ، كقولهم في ما شاء الله : مشاء الله.

الوتم في لغة اليمن : وهو جعل السين تاءً ، كقولهم في الناس : النات . وهكذا الوكم في لغة ربيعة : كسر هاء الغيبة متى تليها ميم الجمع (والفصيح أنها لا تكسر إلا إذا كان قبلها ياء أو كسرة نحو عليهم وبهم) فيقال في منهُم و عنهُم : منهِم وعنهِم بكسر الهاء .

الاستنطاء في لغة سعد بن بكر وهذيل والأزد وقيس والأنصار : فإنهم يجعلون العين الساكنة نوناً إذا جاورت الطاء ، كقولهم في أعطى : أنطى وعلى لغتهم قرئ شذوذاً (إنا أنطيناك الكوثر) وجاءت أمثلة منها في الحديث الشريف .

التلتة في بهراء وهم بطن من تميم ، وهي كسر أحرف المضارعة مطلقاً ، نحو تِعلمون و نِعلم (بكسر الأول) .

القطعة في لغة طيئ : وهي قطع اللفظ قبل تمامه كقولهم في يا أبا الحكم : يا أبا الحكا .

والقطعة غير الترخيم في كتب النحو إذ أنها تتناول سائر أبنية الكلام بينما هو مقصور على حذف آخر المنادى .

ويشتمل كثيراً من الاختلافات الفرعية بين القبائل ولعلّ من أهم هذه الاختلافات ما يلي ، وهي نوع آخر منها :

١- ابدال الميم باءً والباء ميماً عند بني مازن فيقولون في بكر : مكر، وفي اطمئن: اطبئن .

٢- إبدال الحاء هاءً لقرب مخرجها عند بني سعد بن زيد مناة فيقولون في مدحته مدهته .

٣- قلب الياء ألفاً بعد إبدال الكسرة التي قبلها فتحة عند بني طيئ ، فيقولون في رَضِي : رضا ، وكذلك يبدلون الهمزة في بعض المواضع هاءً فيقولون : هِن فعلتَ فعلتُ ، في إن فعلتَ فعلتَ . ومن ذلك قول شاعرهم :

ألا يا سنا برق على قلل الحمى لهنّكَ من برقٍ عليَّ كريم

٤- قصر " أولئك " من أسماء الإشارة ، والالحاق بها لاماً عند بني قيس وربيعة وأسد فيقولون : ألالك . كما في قول شاعر :

ألالك قومي لم يكونوا أشابة وهل يعظ الضليل إلا ألالكا

٥- حذف نون اللذين واللتين في حالة الرفع عند بلحارث بن كعب وبعض بني ربيعة وعلى لغتهم قال الفرزدق :

أبني كليب ، إن عمَيّ اللذا قتلا الملوك وفكّكا الأغلال

٦- ابدال "ذو" بالذي ، و"ذات" بالتي في جميع حالات الإعراب .

٧- قلب الياء بعد الفتحة ألفاً في لغة بلحارث وخثعم وكنانة ، فيقولون في إليك "إلاك" وعليك "علاك" ، ولديه "لداه" كما قال شاعرهم :

* طاروا علاهن فطِرْ علاها *

٨- كسر الحرف المفتوح إذا كان الحرف أوالذي يليه من حروف الحلق عند تميم ، فيقولون في رَغيف وشَعير والحَمد لله : رِغيف وشِعير والحِمد لله .

٩- تسكين الحرف الأوسط المتحرك من الأسماء والأفعال الثلاثية عند بكر بن وائل وأناس كثير ، فيقولون في فخِذ و رجُل و علِم و كرُم : فخْذٌ و رجْلٌ و علْمَ و كرْمَ .

١٠- استعمال "متى" بمعنى "من" باعتبارها حرف جرّ عند الهذليين فيقولون : "أخرجها متى كمّه " يريدون "من كمّه " .٣٠، تسمعهم يقولون : " تْسِيف حالك ؟ " ، و " على تْسَم ؟ ". كماعر فنا عند أصحاب الكشكشة ، وهم كثيرون في جنوبي العراق وبلدان الخليج وشمالي إفريقيا : " تْشبير " و " تْشلب " في " كبير " و " كلب " وما إلى ذلك .

وأصاب صوت الجيم في اللهجات الحديثة ، وانحلاله أحيانا إلى g وإلى الدال أحيانا ، وتارة إلى شين مجهورة ، نحو : " جمل " في اللهجة المصرية " gamal " ، وتنطق الجيم دالاً في صعيد مصر ، فأهالي مدينة " جرجا " مثلاً يسمون مدينتهم " دردا " ، كما يقولون : " دمل " و " داموسة " في " جمل " و " جاموسة " وغير ذلك. أما الشين المجهورة ، فقد ضاع منها الجهر ، فصارت شيناً مهموسة ، كالشين الأصلية في العربية ، فقد سمع عن قبيلة تميم ، أنهم كانوا يقولون في المثل : " شرّ ما أشاءك إلى مخّة عُرقوب " ، بدلاً من : " أجاءك " أي ألجأك . كما تحولت الجيم إلى " ياء " . ففي بعض قرى جنوبي العراق ، وبعض بلدان الخليج العربي يقولون في " مسجد " مثلاً "مسيد " ، وفي " دجاج " : " دياي " وغير ذلك .

وكذلك " القاف " من الأصوات التي عانت كثيراً من التغييرات التاريخية في العربية ، فهو في كلام كثير من أهل مصر والشام همزةً ، فيقولون لكلمة " وقت " "وأت" مثلاً ، كما تنطق في السودان وجنوبي العراق " غيناً " ، فنسمعهم يتحدثون عن "الاستغلال " ، وهم يقصدون بذلك : الاستقلال . وفي لهجة مصر كلمتان من هذه الظاهرة هما : " بِغْدر " ومشتقاتها ، بدلاً من " يقدر " ، و" زغزغ " بمعنى : حرّك يده في خاصرة الصبي ليضحكه ، ولها صلة " بالزقزقة " المروية لنا عن العرب بمعنى ترقيص الطفل . ،، وينطقها أهل الفلسطين " الكاف " فيقولون مثلاً : " كال " في " قال " وغير ذلك . هذه بعض الأمثلة للأصوات في اللهجات العربية الحديثة .

في الحقيقة كثرة الاستعمال تبلي الألفاظ وتجعلها عرضة لقص أطرافها ، خاصة الكلمات القصيرة كثيرا ما تقاوم الانحرافات التي تدور في الكلام بكثرة مثل كلمات التحية التي يرددها الناس صباح مساء نحو قولهم : " عم صباحاً " المتطورة عن"أنعم صباحاً " ، " م الله " من " أيمن الله " ، وأهل مصر يقولون : " سلخير " بدلاً من " مساء الخير " ، وقول أهل العراق : " الله بالخير " أي صبّحك الله ، أو مسّاك الله بالخير . ويقال : "أيش " بدلاً من " أي شيئ " ، ثم صار عند أهل نجد " أش " كذلك في " أيش تبغي ؟ " يقولون : " أش تبي " ، وفي " جئ بهذا " يقولون :

" جيب هذا " فقلبت الهمزة ياء ، واقتطعت الباء الجارة ، وضمت إلى فعل أمر .

. والهمزة في اللغة العربية تخلصت منها معظم القبائل العربية الحديثة ، لأن صوت الهمزة عسير النطق ، كما نرى هذا التخلّص عند قبائل الحجاز قديماً . وسقوط الهمزة في غير أول الكلمة ، هو الشائع في اللهجات العربية الحديثة ، وكان هو المميز للهجة قريش في الجاهلية . وكثر سقوط الهمزة في أول الكلمة في العاميات الحديثة ، مثل " سنان " في " أسنان " ، و " سبوع " في "أسبوع " ، كما يسقط أهل تونس وأهل الجزائر همزة " أبو " مثل : " بومدين " و "بوتفليقة " و " جميلة بوحريد" ، وكما نرى في الجزيرة العربية بعض الأسماء مثل : "باحسين " و "بابطين" ونحوها .

وقد يلتبس الأمر بسقوط الهمزة من آخر الأفعال بالفعل المعتل الآخر عند إسنادها إلى الضمائر ، نحو : مليت من ملأ ، وأخطيت من خطأ ، وقريت من قرأ ، وأبطيت من أبطأ ، كما يقال : رميت ، وسعيت ، وبنيت .

وهذه اللغة العامية كانت في الأمصار الإسلامية أول عهدها لحنا صرفا لما بقي في أهلها من آثار السليقة ، وعلى حساب الآثار كانت درجاتها في القرب من الفصيح والبعد عنه . يذكر الجاحظ لغة أهل المدينة لعهده فقال : " إن لهم ألسنة زلقة ، وألفاظا حسنة وعبارة جيدة ..." ثم قال : " واللحن في عوامهم فاش وعلى من لم ينظر في النحو منهم غالب " . ٤٥ كما ضرب لنا الجاحظ أمثلة كثيرة ، يظهر فيها أثر العادات اللغوية ، للشعوب التي اعتنقت الإسلام على نطقهم العربية ، فقال مثلاً : " ألا ترى أن السُندي إذا جُلِبَ كبيراً ، فإنه لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زايا، ولو أقام في عليا تميم ، وفي سفلى قيس ، وبين عجز هوازن خمسين عاما . وكذلك النبطي القحّ ، خلاف المغلاق الذي نشأ في بلاد النبط ، لأن النبطي القح ، يجعل الزاي سيناً ، فإذا أراد أن يقول : زورق ، قال : سورق . ويجعل العين همزة ، فإذا أراد أن يقول : مشمعلّ ، قال : مشمئل " . ٤٦

سبب شيوع اللحن :

اللحن في اللغة العربية يعني دخول " العامية " بين ألفاظها ، فهو " تحريف "

للسان العربي الفصيح . دخلت " العامية " إلى الفصحى بسببين ، أحدهما قديم والآخر حديث ، أما الأول فمنشؤه اختلاط العرب بالعجم ابان المد الإسلامي والفتوحات الإسلامية ، وما تبع هذا الاختلاط من مصاهرة وتعايش وتمازج بين العرب وغيرهم من الشعوب .

كان ظهور الإسلام حدثاً هاماً في تاريخ العرب اللغوي ، وكان ظهوره حافزاً رئيسياً على الفتوح الإسلامية التي أدت إلى انتشار اللغة العربية انتشاراً واسعاً في البلاد المفتوحة ، فأثرت على لغات تلك البلاد وتأثرت منها . فكانت اللغة العربية في حاجة إلى التدوين والحفظ منذ خروج العرب من عزلتهم واختلاطهم بالأعاجم ، ودخل الأعاجم تحت سلطانهم فكان لهم ما للمسلمين العرب وعليهم ما عليهم من حرّية وإخاء ومساواة . فلازم هذا الاختلاط شيوع اللحن وفساد ملكة هذه اللغة ، كما يقول الزبيدي : " ولم تزل العرب تنطق على سجيّتها في صدر إسلامها وما في جاهليتها حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان ، فدخل الناس فيه أفواجاً وأقبلوا اليه أرسالاً واجتمعت فيه الألسنة المتفرقة ، واللغات المختلفة ، ففشا الفساد في اللغة العربية ، واستبان منها في الإعراب الذي هو حليها ، والموضح لمعانيها . فتفطن لذلك من نافر بطباعه سوء أفهام الناطقين من دخلاء الأمم بغير المتعارف من كلام العرب ، فعظم الإشفاق من فشوّ ذلك وغلبته حتى دعاهم الحذر من ذهاب لغتهم وفساد كلامهم ، إلى أن سبّبوا الأسباب في تقييدها لمن ضاعت عليه وتثقيفها لمن زاغت عنه ". ٤٧

وإذا تأملنا في تاريخ العرب اللغوي لصدر الإسلام حين جاءت وفود العرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على اختلاف شعوبهم وقبائلهم ، وعلى ما في لغاتهم من اختلاف الأوضاع وتفاوت الدلالات في المعاني اللغوية ، قد لا يفهم أصحابه من ذلك أشياء كثيرة . ثم هناك شعوباً متباينة الثقافات والديانات والعادات والتقاليد قد ضمّها مجتمع الدولة الأموية ، فتأثر بصلاته بتلك الشعوب وأخذ عنها ، ولكن هذا الأخذ ظلّ في حدود ضيّقة . وما زالت لغات العرب جارية على سنن الفطرة ، كما قال الجاحظ :

" كله عربي وبكل قد تمادحوا وتعايبوا " . ٤٨ ففي ذلك العصر لم يكن التفاعل بين العرب والشعوب التي دخلت في إطار تلك الدولة جذرياً ، وما زالت لغاتهم على ذلك حتى خالطوا السوقة في الأمصار الإسلامية ، ونشأت أجيالهم على سماع العرب والعامة ، فأخذوا من هؤلاء وهؤلاء، وكان ذلك سريعاً في ألسنتهم ، ففسدت السليقة العربية فساداً أحال منطقهم ، وقد كانت مخالطتهم للأعاجم أبقى على فطرتهم لأنهم يعربون وينقلون عنهم ، ولكنهم لا يحكونهم في المنطق بخلاف أمرهم مع العامة ، ولكل شيئ آفة من جنسه . ومن هنا دبّ الفساد في ألسنتهم بما يدور على مسامعهم من كطانة السوق ولحن البلديين . وإذا نظرنا إلى العصر العباسي فنجد أن الأحداث السياسية والتطورات الاجتماعية أثرت على اللغة العربية . فقد كان لاختلاط العرب بالأعاجم أثر سيئ على اللغة إذ انتشر اللحن في الحواضر ، مما حمل علماء اللغة على وضع التصانيف في القواعد ، وعلى جمع اللغة من البوادي . ووضعت المعاجم ليسترشد بها من شاء الاطلاع ، ولتحفظ أسس اللغة من التشويه والعبث .

لا شك أن لاختلاط العرب بغيرهم من الشعوب أثراً بالغاً ، ولكنه أثر لم تحمله الكتب بل التفاعل المباشر الذي ظهرت بعض بوادره في الحياة العامة داخل المدن ، وإدارة الدولة ، والعمران .

أما السبب الثاني فحديث نعايشه اليوم وهو " تغليب " اللهجات المحلية على اللغة العربية الأم من خلال الفعاليات الاعلامية مرئية ومسموعة ومقروءة أيضا . فدعا بعض الناس لنشر " العامية " في مصر وبلاد الشام منذ بداية النصف الأول من القرن الحالي وتصدى لها رجال مخلصون في مقدمتهم عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين . فكان يؤمن أن العرب لا يمكن لهم التخلي عن ماضيهم ، فهذا هو الضياع بعينه ، فالفصحى هي لغة القرآن والسنة ، وعدم التمسك بها يعني تفريطنا بعقيدتنا الإسلامية قبل تفريطنا بموروثنا الأدبي .

أثر الإسلام على اللغة العربية :

عند ما نزل القران الكريم على النبي الأمي صلى الله عليه وسلم تأثرت اللغة العربية تأثيراً واضحاً ، فحضّ الإسلام على طلب العلم والقراءة والكتابة . ولعل ما

قام به عمر من تعريب التدوين ، وجعل السجلات باللغة العربية . وعرف عهد علي بن أبي طالب أول محاولة لإنشاء علوم اللغة إذ وضع بين يدي أبي الأسود الدؤلي ، الأسس التي يجب أن يبني عليها قواعد النحو والصرف . وبدأ الناس يحفظون الآيات البيّنات ، ويدرسونها ، ويطلبون تفسيرها وشرحها . فكانوا يجتمعون في المساجد أو البيوت يتدارسونها ، ويرجعون إلى الأئمة ، يسألونهم فيها ، ويحفظون عنهم . ويتداولون في موقف الإسلام من الأمور الطارئة ، والأحوال المستجدة ، مما كان يواجههم في المجتمع الجديد ، أو في البلاد التي احتلوها . ولعل تلك بداية نشوء الفقه وعلوم الدين . وانصرف الشعراء عن المعاني الجاهلية وعبروا عن الحياة الجديدة ، فأصبح لكثير من الألفاظ معان شرعية ، وكانت أشعارهم تحتوي على معاني المبادئ الإسلامية ، وتعظيم شأنها ، وذمّ ما عليه أعداء الإسلام من طبائع تنافي الدين والأخلاق والإنسانية ، مرتكزاً إلى المعاني الإسلامية . كما أن المسلمين عرفوا ألفاظاً تدل على الحياة الإدارية والسياسية بعد استقرار المسلمين ، ودخلت مصطلحات كثيرة من النحو وعلم الحديث والفقه والبلاغة وغيرها . يقول ابن فارس :

" فلما جاء الله جل ثناؤه بالإسلام حالت أحوال ، ونسخت ديانات ، وأبطلت أمور ونقلت من اللغة ألفاظ عن مواضع إلى مواضع أخر بزيادات زيدت ، وشرائع شرعت وشرائط شرطت ". ٤٩

وأخرج الإسلام اللغة العربية من منطقة محدودة إلى الرقعة الإسلامية كلها . وأثبتت أنها لغة حية قادرة على مسايرة الحياة بتقبلها لكل العلوم العربية وغير العربية .

المراجع

١- أحمد بن فارس – معجم مقاييس اللغة – دار احياء الكتب العربية ، القاهرة – ١٣٧١هـ (٥ / ٢٥٥)

٢- ابن دريد ، ابوبكر محمد بن الحسن – جمهرة اللغة – مطبعة مجلس دائرة المعارف بحيدرآباد دكن (٣ / ١٥١)

٣- ابن جنّي ، ابوالفتح عثمان – الخصائص – دار الكتب المصرية ، القاهرة – ط : ١٩٥٢م (١ / ٣٣)

٤- ابن منظور ، ابوالفضل محمد بن مكرم – لسان العرب – دار صادر ، بيروت – ط : ١٩٥٦م (١٥ / ٢٥٠)

٥- الجوهري الفارابي – بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة – مطبعة السعادة ، القاهرة – ط : ١٣٢٦ م (ص : ١٩٥٠)

٦- الزركلي ، خيرالدين – الأعلام – الطبعة الثانية (٢ / ٢٧٩)

٧- حم السجدة : ٢٦ .

٨- المؤمنون : ٣ .

٩- الطور : ٣٢ .

١٠- مريم : ٦٢ .

١١- الغاشية : ١١ .

١٢- ابن فارس ، ابوالحسين احمد – الصاحبي – عيسى البابي الحلبي ، القاهرة – ١٩٧٧م (ص : ٤١)

١٣- السيوطي ، جلال الدين – الإتقان في علوم القرآن – مطبعة عثمان عبدالرزاق ، القاهرة ١٣٠٦هـ (١ / ٤٨)

١٤- الزبيدي ، ابوبكر محمد بن الحسن – طبقات النحويين – (ص : ٣٤)

١٥- ابراهيم : ٤ .

١٦- النحل : ١٠٣ .

١٧- الشعراء : ١٩٥ .

١٨- القصص : ٣٤ .

١٩- الأحقاف : ١٢ .

٢٠- سبتينو موسكاتي : الحضارات السامية القديمة ، ترجمة د . السيد يعقوب بكر - القاهرة ١٩٦٨ (ص : ٤٤)

٢١- الحجر : ٩ .

٢٢- ولفنسون اسرائيل - تاريخ اللغات السامية - الطبعة الأولى - مطبعة الاعتماد ، القاهرة - ١٩٢٩ م . (ص : ٢٠)

- علي عبدالواحد وافي - علم اللغة - مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة - ١٩٤٤م (ص : ١١٨)

23- Encyclopedia Britannica (9th ed.) Article " Arabia " Chicago, London etc.1965
Vol. II _____ Arabia.
Vol. XIII____ Language.

٢٤- ولفنسون - تاريخ اللغات السامية - (ص : ٤)

25- Barton, G.A - Semitic and Hamitic origins,social and religious- Oxford University Press- 1934 (P : 1)
Encyclopedia of Religion and Ethics- VII - Charles Scribner's Sons . New York - 1925 - Vol . XI - Semitics -(P : 378)

- جواد علي - تاريخ العرب قبل الإسلام - المجمع العلمي العراقي ، بغداد - ١٩٥٧م (١/ ١٥١)

26- Wright William - Lectures on comparative Grammer of the Semitic languages - CambridgeUniversity Press - 1890 (P : 7)
- Barton , G.A - Semitic and Hamitic Origins - (P : 4)

٢٧- محمد بن سلّام الجمحي - طبقات فحول الشعراء - مطبعة المدني بالقاهرة - (ص : ٦٨)

٢٨- السيوطي ، جلال الدين - المزهر في علوم اللغة - دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة - بدون تاريخ - (١ / ٢٥٦ ، ٢٥٧)

- ابن جنّي - الخصائص - (٢ / ٢٨)

٢٩- طـه : ٩٤

٣٠- ابن منظور - لسان العرب - (٢ / ١٨٢ ، ١٨٣)

٣١- يوسف : ١٣

٣٢- ابن منظور - لسان العرب (٦ / ٩٩)

٣٣- البقرة : ١٩

٣٤- ابن فارس - الصاحبي - (ص : ٥٥)

٣٥- ولفنسون - تاريخ اللغات السامية (ص : ١٩)

٣٦- السيوطي - المزهر - (٢ / ١٧٥)

٣٧- الزبيدي - طبقات النحويين واللغويين - (ص : ٣٨)

٣٨- ابن جنّي - سرّ صناعة الإعراب - البابي الحلبي ، القاهرة - الطبعة الأولى - ١٩٥٣م (ص : ٢٧٥ ، ٢٧٦)

٣٩ - ابن فارس - الصاحبي - عيسى البابي الحلبي ، القاهرة - ١٩٧٧م - (ص : ٣٥)

٤٠- الزبيدي ، السيد محمد مرتضى - تاج العروس من جواهر القاموس - المطبعة الخيرية ، مصر - ١٣٥٧هـ (١ / ٨)

٤١- الحريري - شرح درة الغواص في أوهام الخواص - مطبعة الجوائب ، قسطنطنية - الطبعة الأولى - ١٢٩٩ هـ (ص : ٢٣٤)

٤٢- الزمخشري ، محمود بن عمر - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل - مطبعة الاستقامة بالقاهرة - الطبعة الأولى ١٩٤٦ م = ١٣٦٥هـ -الجزء الثاني .

٤٣- الرافعي ، مصطفى صادق - تاريخ آداب العرب - المكتبة التجارية ، القاهرة - الطبعة الثانية - ١٩٥٤ م (١ / ١٤١-١٤٨)

- ابن فارس - الصاحبي - باب اللغات المذمومة - (ص : ٣٥ - ٣٧)

٤٤- د. رمضان عبدالتواب - اللهجة العامية المصرية في القرن الحادي عشر - حوليات دار العلوم - ١٩٧٠ م (ص : ١١٥)

٤٥- الجاحظ ، عمرو بن بحر - البيان والتبيين - دار الفكر للجميع ، القاهرة - ١٩٦٨م (١ : ١٠٢)

٤٦- المرجع السابق (١ / ٧٠)

٤٧- الزبيدي - طبقات النحويين واللغويين - (ص : ١، ٢)

٤٨- الجاحظ - البيان والتبيين - (١ / ١٥١)

٤٩- ابن فارس - الصاحبي - (ص : ٧٨) .

وفاة الأستاذ احمد يار

انتقل إلى رحمة الله تعالى في بداية شهر محرم ١٤١٨ ه أستاذ الدراسات الإسلامية ومفسر القرآن الكريم وعالم باللغة العربية وآدابها الشيخ أحمد يار بعد معاناة مع المرض .

و " الأضواء " إذ تنعى الفقيد تتسأل الله أن يسكنه فسيح جناته ، وأن يلهم آله وذويه جميل الصبر والسلوان .. " إنا لله وإنا إليه راجعون .